الأُمَويّونَ والعبَّاسيُّون وَنَصيبهم فى القضَاء عَلى هَيبَة قُريش وبقَاء الفَرع العَلَوى

obeikandl.com

دار الرشاد

obeikandl.com

بَنو أميّة وَمَسؤوليتهم فى إضعَاف قريش :

كان العصر الأُموى تجربة عسيرة جداً للعرب وقريش . لقد توقفنا فى عرضنا عند بداية الفترة المروانية بولاية مروان بن الحكم فى ٣ ذى الحجة سنة ٦٤هـ/ ٢٢ يوليو ٦٨٤م . لأن مسار الأحداث إلى الآن فى قيادة الفرع السفيانى انتهى إلى ما يشبه الطريق المسدود ، ومؤتمر بنى أمية فى الجابية لم يكن اجتماعاً عربياً ولا إسلامياً ، إنما هو اجتماع قبلى قاده شيخ مروانى ضعيف الانتماء والإيمان والأمر ، وقرر المصيرَ فيه شيخٌ من شيوخ القبائل البدوية التى أصبح رجالها نتيجة لفشل قريش فى إدارة الدولة أصحاب الأمر فى مصائر الخلافة ، وقد رأينا العوامل التى حركت هؤلاء الشيوخ البدويين الذين تحولوا إلى قادة سياسيين وعسكريين ، فى حين أن نفراً كبيراً من أهل عشيرتهم من رجال القبائل أصبحوا جنداً مرتزقة يخدم من يدفع وتراجع فى نفوسهم الوازع الدينى وانمحت من أذهانهم فكرة صالح الجماعة الإسلامية ، ومن حسن الحظ أن هؤلاء كانوا قلة بالنسبة لمجموع العرب ، أما البقية فقد واصلت الفتوح غير مكترثة للسياسة .

ولم نكن نتوقع من هذا الطراز من الرجال أن يكونوا قادة أمة أو ساسة دولة ، وإنما كان شأن هؤلاء فى أيام أبى بكر وعمر أن يُوَجهوا التوجيه الصحيح فيطيعوا ويصبحوا قادة وجنوداً بواسل تأتمر بأمر أصحاب الأمر فى دولة الإسلام ، وسَيُرَدُّ هؤلاء إلى هذا الوضع عندما يتولى خليفة قوى مثل عبد الملك بن مروان وابنه الوليد ، وستحقق القيادة القرشية المروانية على أيديهم فتوحاً عظيمة ، ولكن هؤلاء القادة والجند من العرب سواء أكانوا فى السياسة أو خارجها لم يعودوا قط إلى ما كانوا عليه

أيام أبى بكر وعمر : مجاهدين فى سبيل الأمة توجههم القيادة الحكيمة ، إنهم اليوم شركاء الخلفاء فى الحكم ولهم كلمة ودالة ونزوات لابد أن تتغاضى عنها القيادة المروانية القرشية ، فهى لم تعد السيدة المطلقة فى الدولة ، وخلفاء بنى مروان يجتهدون فى السيطرة على مسار الأمور بأساليب سيئة وخبيثة ، غريبة عن طبيعة الإسلام أما الأمة الإسلامية المؤمنة – عربها وغير عربها – فقد نفضت أيديها من السياسة والخلافة وأسلمت قيادها لأهل العلم والتُّقى والإيمان من أهل الورع والعلم والفقه.

ومن بداية خلافة معاوية بن أبى سفيان خلعت الأمة فى الواقع ودون الاسم والظاهر بيعة الخلفاء أو الولاء لهم ، ولم يعلن هذا الخلع إلا الخوارج على درجات وصور مختلفة بحسب مذاهبهم من حرورية ونجدات متطرفين ، إلى صفرية أنصاف متطرفين ، إلى إباضية معتدلين : خارجين على الدولة ولكنهم مهادنون للأمة غافرون لها طاعة الأئمة الجائرين إدراكاً منهم لصعوبة الخروج الصريح على الدولة والأمة معاً وحَمْل السلاح فى وجههما .

وفى جانب آخر مضى الهاشميون يرتبون أمورهم فى الخفاء لأن تجاربهم فى العصر السفيانى أقنعتهم بخطر المجابهة السافرة والتعرض لسيوف الجند العربى المرتزقة التى كانت تضرب فى غير رحمة ، وأحياناً بلا دين أو عقيدة .

وقد بدأ المروانيون بالقضاء على دعوة للإمامة قادها قرشى من بنى عبد العزى بن قصى هو عبد الله بن الزبير بن العوام بن خويلد وأمه أسماء بنت أبى بكر ذات النطاقين من بنى تيم بن مرة ، وعبد الله بن الزبير كان خليفة مناوئاً فى مكة والحجاز مدى ثلاثة عشر عاماً ، وأقام بالبيت متحصناً فيه فسمى بالعائذ ، وهو كان بطبعه بعيداً كل البعد عن خِلال الخلافة ، وقد جاء حينٌ من الدهر طاعت له معظم ولايات الدولة . لا حباً فيه ولكن كراهة ببنى أمية جملة . وهو – عبد الله بن الزبير – السبب فيما أصاب البيت المعظم فى مكة على يد مسلم بن عقبة المرى والحصين بن نمير الكندى ، وهو أيضاً كان سبب هلاك الآلاف من المسلمين الذين وقفوا معه فى الحجاز أو مع أخيه مصعب فى العراق ، ومهما كان الرأى فى خلافة عبد الله بن الزبير

فهى محسوبة على قريش ، كما كان موقف أبيه الزبير بن العوام من على بن أبى طالب محسوباً عليها أيضاً ، وإذا كانت قيادة قريش قد تهدمت فإن المسئولين عن ذلك قرشيون فقد طاعت الأمة لقريش أيام الرسول وأيام أبى بكر وعمر ثم وقعت المنافسات على الخلافة بعد عمر وتزعزعت وحدة قريش واهتزت زعامتها على ما حكيناه .

انتهت دعوى ابن الزبير واستقر الأمر لمروان بن الحكم وبيت مروان ، ولكن نصر البيت المروانى كان هزيمة لقريش ، فلكى ينتصر مروان كان لابد من تحطيم قوة القيسيين الذين مالوا إلى تأييد ابن الزبير ، وقد تم ذلك فى موقعة مرج راهط التى انتصر فيها الكلبيون - وهم بنو كلب بن وبرة القضاعيون الذين انتسبوا بعد الإسلام فى اليمن - على الضحاك بن قيس الفهرى ومن معه من القيسية (المحرم سنة ٦٥هـ) وكان البيت السفيانى قد عرف من أيام ولاية يزيد بن أبى سفيان أخى معاوية الأكبر ، كيف يجمع عرب الشام جميعاً - كلبية وقيسية أو مُضَرية - حول رايته ، وتحويلهم إلى قوة عسكرية مرتزقة متحدة تحت رايته ، وبفضل هذه القوة انتصر معاوية ثم ابنه يزيد على كل من ناوأهم .

أما بعد معركة المرج فقد انكسرت وحدة القوة العربية التى شدت أزر بنى أمية . وثارت الفتنة فى طول الدولة وعرضها بين القيسية والكلبية ، أو بين مُضَر واليمن . وفى خراسان بالذات ، حيث تجمع أكبر عدد من مهاجرة العرب إلى الأمصار بلغت عداوة الجانبين أحدهما ضد الآخر مبلغاً كان له أسوأ الأثر على مصير العروبة فى خراسان وإيران كلها . وقد كان عرب خراسان وما حولها من ولايات سجستان وكرمان ومكران وطبرستان وجُرجان والجبال ، قد تكاثروا وغلبوا على أهل البلاد ، وأخذ الإيرانيون يتكلمون العربية أى يستعربون ، ولو أن الأمور استمرت على هذا المنوال لتعربت إيران كما تعرب العراق والشام ومصر ، ولما كانت هذه الظاهرة الإيرانية الخطرة التى كسرت وحدة أمة الإسلام ووقفت بالعروبة عند الخليج وشرقى العراق ، ولأصبح شرق العالم الإسلامى كله عربياً كما هو الحال بالنسبة لغربه .

وقد كانت خراسان وما يليها شرقاً من بلاد طخارستان ، وجنوباً من بلاد

سجستان وكرمان ، وشمالاً من بلاد ما وراء النهر ، هى الصخرة التى تحطمت عليها الدولة الأموية ، فهنا فى الجناح الشرقى لدولة الإسلام تجمعت جموع العرب الذين كانوا يشدون ظهر هذه الدولة ، أما عرب الشام فقد كانت الغالبية العظمى منهم من جذام ولخم وقضاعة وفروعها (وأهمها هنا كلب بن وبرة وتنوخ) وهؤلاء انضموا لتلك الدولة وأصبحوا مادة لجيوشها وعُرِفوا بعرب الشام أو الشامية . وفى مصر كانت أعداد غفيرة من قبائل قيسية انضمت إليها جماعات يمنية ، وكانت الحروب بينهم مستمرة ولكنها لم تشتد إلى الحد الذى يُعرِّض سلامة الدولة للخطر .

أما المغرب فقد نزلت به جماعات كثيرة من العرب معظمها من تميم . وفيما يلى نهر شلف (الخط الممتد جنوب مدينة الجزائر) ، لم يكن هناك إلا قليل من العرب ، ولم يكن للدولة عليهم سلطان كبير إلا أن دعوة الخوارج وصلت إليهم من وقت مبكر فأصبحوا فى عداد الخارجين عن سلطان الدولة الأموية ، وخاصة بعد الفتنة المغربية الكبرى التى انفجرت سنة ١٢٢هـ فى خلافة هشام بن عبد الملك ، وقضت فى النهاية على كل سلطان لدولة الخلافة شرقى نهر شلف ، وإن كانت الجماعات العربية التى استقرت هناك تحولت إلى عرب بلديين محليين كانت لهم الزعامة فى الكثير من القبائل البربرية ، وهؤلاء ذابوا مع الزمن فى كتلة السكان وأصبحوا عرباً مغاربة بلديين . أما الأندلس فقد اشتدت فيها الحروب الأهلية بين العرب طوال فترة الولاة من ٩٥ إلى ١٣٨هـ حتى دخل البلاد عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان المعروف بالداخل .

والناظر فى تاريخ الدولة الأموية يرى بوضوح أنها لم تكن لها سياسة عربية مستقرة ، وإذا كان عرب خراسان وفارس وما وراء النهر هم الذين استنفدوا أكبر جانب من قوة الدولة الأموية ، فقد كانت حروبهم ومنازعاتهم وعداواتهم ترجع مسئولية معظمها إلى سياسة خلفاء بنى أمية . وعلى الجملة فإننا نستطيع القول إن دولة بنى أمية هى المسئولة الأولى عن إضعاف العرب وتمهيد الطريق لحروبهم جملة من ميدان السياسة الإسلامية .

ذلك أن الذين هاجروا من العرب إلى العراق وبلاد المشرق ، كانوا كثيرين جداً

وكانت فيهم قوة وعزيمة وبسالة كانت كفيلة جداً بأن تجعل ذلك الجانب الشرقى لمملكة الإسلام قاعدة القوة لدولة الإسلام ومنطلقها لنشر الإسلام فى القارة الآسيوية ، ولكن الأمويين - والعباسيين بعدهم - كانوا محطمين محزِّبين لقوة العرب فى تلك الجبهة الشرقية الأساسية .

وعندما نقرأ تاريخ العصر الأموى يستوقف نظرنا سوء تدبير الخلافة الأموية لأمور العرب هناك ، وقد كانت جموع أولئك العرب كثيرة جداً ، وكان مركز تجمعهم الكبير الأول هى البصرة على أبواب المشرق ، ولم تكن البصرة - ومثلها الكوفة - أول الأمر مدينة بمعنى الكلمة بل كانت مركز تجمع العرب : يهاجرون من مواطنهم فى الجزيرة إلى البصرة أو الكوفة وهناك يستقرون حتى يعرفوا إلى أين يتجهون فى هجرتهم ، وكل قبيلة كانت تستعلم أين ينزل السابقون من أهلها لتلحق بهم . وكانت البصرة هى المركز الأول والأكبر ، لأن ولاية البصرة كان يتبعها كل فارس وخراسان وطخارستان وما وراء النهر ، أما الكوفة فلم يكن يتبعها إلا شمال العراق وبلاد طبرستان جنوبى بحر قزوين .

وكان ولاة البصرة قد قسموها إلى خمسة أخماس ، والخمس قطعة من البلد تسكنها جماعات عربية من قبائل معينة ، وأخماس البصرة كانت خمس أهل العالية ، وكانت تنزله القبائل المهاجرة من الحجاز وعوالى نجد أى الأراضى الممتدة من جبال السراة أى مرتفعات نجد ، والمراد بهم أعاريب نجد (هوازن وغطفان وعبس وذبيان وأسد ومحارب ومن إليهم) ، وكانت أعدادهم فى البصرة والشرق قليلة فضمهم رجال بنى أمية فى خمس واحد من أخماس البصرة ثم من أخماس خراسان ، وكانوا فى البصرة والمهاجر أحلاف بنى أمية ، ولهذا فقد كان الأمويون يفضلون اختيار ولاة خراسان منهم ، وخلال العصر الأموى كان حوالى ٧٠٪ من ولاة خراسان منهم ، وكان الذى رفع مكانتهم قتيبة بن مسلم الباهلى ، فكانوا « شعاره ودثاره » كما يقول الطبرى .

وكانت الكتلة الثانية من عرب خراسان هم الأزد ، فقد كثرت هجرة الأزد اليمنيين إلى خراسان أثناء ولاية المهلب بن أبى صفرة وكان بعد مقتل المهلب وتعيين

سليمان بن عبد الملك التميمى مكانه من أكبر الأسباب فى انصراف اليمنيين فى خراسان عن بنى أمية وميلهم إلى الدعوة العباسية .

وهناك خُمْس تميم ، وكانت أعدادهم كثيرة جداً فى خراسان وكان لهم نصيب كبير فى الفتوح وخاصة أيام عبد الله بن عامر بن كريز ، لكن التميميين على كثرتهم كانوا مستضعفين يستعملهم الولاة لأنهم كانوا أقل مهاجرة عرب خراسان تحضراً ، وكان سليمان بن عبد الملك قد قرَّبهم إليه بعد نكبة قتيبة بن مسلم الباهلى ، وولّى واحداً منهم خراسان وهو وكيع بن أبى سود قاتل قتيبة ، ولكن خلفاء سليمان انقلبوا على التميميين وأساءوا إليهم ، وهذا كان سبب ميلهم إلى دعوة بنى العباس ، ومنهم كان الحارث بن سريج الذى انقلب على الدولة وانضم إلى الترك وحارب الأمويين ، وسببوا للعرب أذى كبيراً .

وهناك خمس بكر بن وائل وكانوا كثيرين فى خراسان وكان مركزهم هراة ، ولم يحسن ولاة بنى أمية معاملتهم .

ولو أنه كانت لبنى أمية سياسة عربية رشيدة لطال عمر دولتهم ، ولكن بنى أمية لم تكن لهم سياسة واضحة رشيدة فى أى أمر من أمور الدولة ، إنما كان الميزان عندهم هوى الخليفة وبغض بنى هاشم والاجتهاد فى القضاء عليهم ، وكل ذلك جعل جماعات عرب خراسان أكثر ميلاً إلى الدعوة الهاشمية التى تحولت إلى عباسية كما نعرف.

وعلى ذكر السياسة الرشيدة ينبغى أن نلاحظ أن خلفاء بنى أمية والعباسيين من بعدهم ، لم يكن لهم أى اهتمام بالمرافق العامة ، والمراد هنا الطرق ورعاية المدن والموانىء ومعاونة الفلاحين بشقِّ القنوات وإقامة الجسور والعناية بها . وقد كانت للرومان عناية شديدة بهذه النواحى ، فقد أنشأ الرومان من الطرق المرصوفة آلاف الكيلو مترات لربط أجزاء الدولة بعضها ببعض ، ولتسهيل سير الجيوش والتجار . فأما دول العرب فلم يكن لها اهتمام بذلك ، وإن كان بعض الأمويين والعباسيين قد اهتموا بشقِّ بعض الترع فى العراق ، ولكن هذه لم تكن جزءاً من سياسة عامة ، حتى

طرق الحج إلى الحجاز لم يعنوا بها عناية منتظمة ، وطريق زبيدة المشهورة عنيت به السيدة زبيدة زوج هارون الرشيد من باب التُّقى لا من باب السياسة ، وكانت هناك عناية بشئون الحرمين ، ولكنها كانت قليلة وغير كافية .

ولا نجد فى نظم الدولة الأموية ثم العباسية بعدها إدارات للمدن والعناية بطرقها ومرافقها وتزويد أهلها بالمياه وحمايتهم من الحريق ، وكل هذه المرافق كانت موضع عناية الرومان ، ولها موظفون مسئولون عنها ، وكان لكل مدينة مجلس بلدى Municipo مسئولاً عنها . أما دولتا الأمويين والعباسيين فلم يوجد عندهم شىء من ذلك ، بل لم تكن لهم عناية بأسواق التجارة وطرقها أو الموانى ودور صناعاتها - فيما عدا - دور الصناعة الخاصة بالقوات البحرية للدولة ، أما موانى التجارة وسفنهم وحماية أموالهم فلا وجود لعناية بها على الحقيقة .

ويستوقف النظر أن رسول الله ﷺ كانت له عناية كبيرة بشئون المدينة وعمارتها وأسواقها والجسور على وديانها ، وهو الذى أنشأ الأحماء لإبل الصدقة وخَيْلها وماشيتها وهى جزء من بيت المال ، وقد اهتم أبو بكر وعمر بالأحماء فلما جاء عثمان وأراد الزيادة فيها احتج عليه الناس ، ولم يكن الدافع للاحتجاج الحرص على أموال الجماعة بقدر ما كان غضباً لبعض القبائل التى كان توسع الأحماء فى أراضيها ، وعلى أى حال فحتى هذه توقفت العناية بها بعد عثمان ، ولم تعد للدولة الأموية والعباسية بعدها أى عناية بالمرافق ، والمرافق هى مصالح الناس . فلا غرابة فى أن يشعر الناس أن الدولة الأموية ثم العباسية من بعدها قد قامت لخدمة أصحابها فحسب ، وذلك كان من أكبر أسباب سقوط الدولة الأموية أولاً ثم انصراف الناس عن الدولة العباسية بعد ذلك .

ولكن أسوأ ما فعله الأمويون هو إذكاء العداوات والخصومات بين عرب خراسان والمشرق خاصة ، ظناً منهم أن ذلك يقوى دولتهم . ولكنهم حطموا بذلك درع قوتهم وهم العرب وجعلوهم يميلون إلى دعاة الدعوة العباسية . فلما قامت ارتد معها إلى المشرق آلاف بعد آلاف من العرب ، فعادت النزعة اليمنية إلى الظهور واشتد

obeikandi.com

الصراع بين القيسية واليمنية فى نواحى الدولة كلها ، وخاصة فى إيران والمغرب والأندلس كما قلنا .

وقد استمر عرب إيران يتقاتلون حتى أفنى بعضهم بعضاً خلال معظم العصر الأموى ، وفى أثناء هذه الحرب الأهلية العربية المدمرة دخل دعاة بنى العباس واجتذبوا اليمنيين والخزاعيين الساخطين على مُضَر . وكان الانقلاب العباسى ، وقد ضمت جيوش المؤيدين للعباسيين الجانب الأكبر من بقايا عرب إيران وخراسان خاصة ، واتجهت ألوف منهم نحو العراق والمشرق تحت رايات العباسيين تاركة منازلها فى إيران خالية . وأصبحت أعداد العرب فى إيران ضئيلة جداً ، والعرب فى كل مكان خميرة التعريب وعصب السنة والجماعة . وبينما كانت اللغات الإيرانية والنزعة الإيرانية تحتضران فى أواخر أيام الوليد بن عبد الملك وأيام قتيبة بن مسلم عبقرى باهلة ومحمد بن القاسم فتى ثقيف انتعشتا فى أيام سليمان أخيه وخلفه ، ونفخ دعاة العباسيين فى نيران الفتنة وخاصة بعد مقتل يزيد بن المهلب وانكسار شوكة الأزد ، وكانوا بجموعهم الضخمة العمود الفقرى للعروبة فى الجناح الشرقى لدولة الإسلام.

وهذه النتيجة كلها ثمرة لعجز الفرع الأموى من قريش عن قيادة الجماعة الإسلامية جملة ، فبنو أمية العبشميون شقوا عصا العرب تمكيناً لسلطانهم واستمروا على سياستهم المدمرة للعرب إلى آخر أيامهم ، ثم جاء دعاة الهاشميين فأكملوا ظاهرة تصدع كلمة العرب وتضعضع قواهم وإضعاف دولة الإسلام نتيجة لذلك ، فإذا كان الأولون زلزالاً صدع بنيان أمة الإسلام المكين ، فإن الآخرين - دعاة الهاشميين - كانوا البركان الذى يأتى أحياناً بعد الزلزال ، فتقضى الحمم والنار على ما بقى قائماً .

ولقد قرأت ما كتبه شباب من مؤرخى العرب اليوم وشيوخهم عن طبيعة الدعوة العباسية وما يقولونه من أن الثورة العباسية لم تكن حركة موالٍ إيرانيين كما زعم فان فلوتن ، ودوزى ، ويوليوس فلهاوزن ، وإنما هى ثورة عربية قام بها عرب ضد عرب فى الجناح الشرقى لدولة الإسلام يحسبون أن ذلك كشف جديد يغير صورة التاريخ ،

وما هو بالكشف وإنما هو معروف من قديم الزمان ، وإذا كنا قد عثرنا على مؤيدات واضحة له عند ابن أعثم الكوفى والأزدى وفى كتاب أخبار العباس وولده ومؤلفه مجهول ، فإنه كان حقيقة معروفة عند الطبرى واليعقوبى والبلاذرى ، واقرأ قائمة نقباء الحركة العباسية وقادة الجيوش تَرَ أنهم عرب ليس فيهم من الموالى إلّا نزر يسير ، وهذا بديهى لأن الصراع فى حقيقته كان صراعاً بين بنى أمية ومن انضم إليهم من العرب ، وبنى هاشم ومن مال ميلهم من العرب أيضاً .

وقد كانت نهاية الثورة بانتصار الفرع الهاشمى ثم العباسى على الفرع الأموى وأنصاره راجعة إلى تأييد الأزد وثقيف وتميم وخزاعة خاصة ، وأما الموالى فكان دورهم صغيراً جداً ، وحلَّ بنو العباس محل بنى أمية ولكن الأمر الذى يستوقف النظر فى قيام الدولة العباسية هو أن قائد الجيوش العباسية وذراع الثورة وأداتها الكبرى لم يكن عربياً بل مولى ، هو أبو مسلم الخراسانى ، ثم إن القوات العربية التى سارت من مواقعها فى خراسان وبلاد الترك إلى العراق لتزيل ملك بنى أمية فى العراق ثم فى الشام لم تعد إلى المشرق بعد ذلك ، وخلا مكانها وعجزت بقية العرب - خميرة التعريب - عن تعريب العناصر الإيرانية فينبض عرق الإيرانية من جديد وخاصة عند أنصار النظام الساسانى الذى أزاله العرب ، فانطوت قلوبهم على كراهية العرب الذين أزالوا بيتهم المالك الذى كانوا يعتزون به ويستبدون بالناس باسمه ، وهذا هو المهم ولُباب الموضوع فنهضوا من جديد ونفخوا فى رماد المجد الإيرانى الذاهب ليبعثوا فيه الحياة من جديد ، وشجعهم على ذلك أن العرب الفاتحين تقبلوا إسلام الكثيرين من الفرس دون تحقق من سلامة صِدْقه أو العناية بتعليم أولادهم العربية وتنشئتهم على الإسلام .

ولنضف إلى ذلك أن العرب ارتكبوا أخطاء سياسية كبيرة أثناء الفتوح فأقروا بعض كبار رجال الأكاسرة من طبقة الأساورة فى رياساتهم وعهدوا إليهم فى الوظائف والأعمال الإدارية والمالية منخدعين بإسلام ظاهرى نطقوا به بشفاههم دون قلوبهم ، وأسوأ من ذلك إقرارهم حكام القرى والكور ممن دخل فى الإسلام فى وظائفهم ، وهؤلاء هم الأصبهبذون - واحدهم أصبهبذ - فمضوا يرهقون الناس

بالضرائب كما كان الحال قبلاً ، ولا يقدمون للدولة إلا ما ينص عليه الشرع ، وساعد فى ذلك بعض ولاة العرب ورجالهم فى خراسان وقد كان فيهم فساد كثير يصل إلى نهب الناس . فساءت صورة الحكم الإسلامى فى إيران أثناء العصر الأموى ، وكرهت الجماهير بنى أمية ورجالهم وتعلقت نفوسهم بخليفة عادل يطبق عليهم شرع الإسلام ، واجتمعت آمالهم حول على بن أبى طالب لأنه كان شخصية جليلة حقاً، ومثالاً للفارس المسلم المؤمن، فلما قتل اتجهت قلوبهم إلى ابنه الحسين فلما قتله الأمويون على الصورة البشعة المعروفة أصبح دم الحسين الشهيد هو صوت المعركة ولواؤها . ولهذا يعتبر العاشر من المحرم سنة ٦٣هـ . أشد أيام التاريخ الإسلامى حسماً ، فهو يوم تصدُّع وحدة العرب وبدء ظهور الإيرانيين على مسرح السياسة الإسلامية .

وموالى إيران هنا انتصروا دون أن يخوضوا حرباً مع العرب ، وأيدت الخلافة العباسية ذلك بالاستكثار بعد ذلك من جند الموالى ورجالهم والاعتماد عليهم ، واتخذوا قاعدتهم فى بغداد خارج النطاق العربى ثم اتجه العباسيون إلى إهمال ذكر الأنساب العربية ، فالرجل أصبح يُذكر منسوباً إلى بلده ، وينتهى الأمر بانهزام العرب وضعف جبهة العروبة فى مركز الدولة . لم يهزمهم الإيرانيون أو الفرس أو الموالى وإنما كانوا هم الذين هزموا أنفسهم ، وهى ظاهرة ما أكثر ما حدثت فى تاريخ العرب وصراع هاشم وعبد شمس ، وهو صراع كان محدوداً وغير خطر فى الجاهلية ، أخذ شكلاً خطراً بعد الإسلام وقيام الخلافة وقاضياً على قوة قريش فى النهاية ومُؤْذِناً بنهاية سيادة العرب فى دولة الإسلام ، وتلك هى النتيجة الفاصلة حقاً فى تاريخ المسلمين .

وسواء نظرنا إلى السياسة العربية للدولة الأموية أو للسياسة العربية للدولة العباسية فسنجد فى الصميم أنها كانت سياسة مدمرة للسيادة العربية عامة والقرشية خاصة ، وكلما مضينا مع التاريخ العباسى فإننا نجد السيادة القرشية تتراجع . حقاً إن الخليفة كان قرشياً ، ولكن قريشاً كانت تتراجع وتخرج من ميدان السيادة والقيادة ليتحول القرشيون فى النهاية إلى طبقة من الأشراف أو النبلاء إذا شئت لا شأن لها

obeikandi.com

بسياسة أو سيادة ، وإنما هم زينة فى المجتمع وعنوان شرف ولا زيادة ، وفى مكان سيد الدولة القرشى يظهر شيخ قريش فى بغداد وواسط والبصرة والكوفة والفسطاط ، وهو رجل من المياسير الأجلاء الذين يزينون المجتمع ويتقاضون رواتب من الدولة لأنهم ذوو القربى ولهم مال معلوم فى بيت مال المسلمين دون أن يكون لهم أى وزن سياسى . وفى سيرة الإمام الشافعى - وهو قرشى - نقرأ أن أمه خافت إن هى طال مقامها بابنها فى منازل خزاعة فى طبرستان أن يفقد حقه فى بيت المال ، فسارعت به إلى بغداد .

أما فيما يتعلق بالدولة العباسية فإن الخليفة يتحول مع الزمن إلى شخصية غير عربية فى السياسة والروح ، وليس عبثاً أن تكون أم أبى جعفر المنصور كانت جارية مغربية لأن معظم أمهات الخلفاء سيصبحن من الآن فصاعداً غير عربيات ، وشيئاً فشيئاً تَقِلّ حتى تتلاشى النسبة القرشية بل العربية فى دماء الخلفاء ، ولا يبقى من سمات القرشية والعروبة إلا الاسم واللسان وقريش بهذا تتحول إلى ذكرى ، وتحضرنى بهذه المناسبة حادثة صغيرة يرويها ادوارد جبيون فى تاريخه الممتع لتدهور الدولة الرومانية وسقوطها ، فهو يحكى أن شيخاً وقف فى مجلس الشيوخ أيام الامبراطور هادريان (١١٧ - ١٣٨ ق.م.) وقال : أيها الرومان فلم يرد عليه أحد ولا فهم كلامه أحد ، فلم يعد فى المجلس رومان يفهمون اللاتينية الفصيحة ، لأن كل الجالسين كانوا غير رومان يحملون أسماء رومانية ، وضعهم فى مجلس الشيوخ القادة المتنافسون على تاج الامبراطورية .

وقصة تدهور السلطان القرشى العباسى قصة طويلة محزنة . وأكثر ما يستوقف نظر المؤرخ فيها هو هذا الهوان الذليل الذى وصلت إليه القيادة القرشية العباسية ، وإن الإنسان ليأسى - دون أن يدهش - كيف انحدرت القيادة القرشية من الأوج الذى كانت فيه أيام أبى بكر وعمر وتهبط إلى الدرك الذى وصلت إليه ابتداء من أيام المتوكل (٢٣٢ - ٢٤٧هـ/ ٨٤٧ - ٨٦١م) وهو الخليفة الذى يدخل التاريخ على أنه أول خليفة قرشى قتله ابنه ، ثم يجىء بعده ابنه المنتصر ، أول خليفة صعد إلى كرسى الخلافة على جثة أبيه وقتيله ، والمستعين الذى لم يكتف الأتراك بخلعه ونفيه بل أصروا

على قتله ، ثم المعتز الذى وصف لنا ابن الأثير مشهد مهانته وذله على يد جنده الأتـراك فى صورة مللناها لكثرة مـا قرأناها [١] فهذا الرجل الذى لابد أن يُعتبر - رسميـاً - شيخ قريش فى عصره ، ظل خليفـة لمدة ثـلاث سنوات (٢٥٢ - ٢٥٥ هـ/ ٨٦٦ - ٨٦٩م) يُجَـرُّ من رِجْله ويضرب بالدبابيس ويقطـع قميصه ويقام فى الشمس فى الدار فيمضى يرفع رِجْلاً ويضع أخرى لشدة الحر ، وعبد مملوك يلطمه فيتقى بيده، وفى النهاية يضعونه فى سرداب ويقفلون عليه ويختفى من صفحات تاريخ لم يدخله ، وهذا ما وصل إليه حفيد قصى المجَمِّع وعبد المطلب الجليل ، وهذا ما فعلته الخلافة بهذا الفرع من قريش : جروا وراءها وطلبوها ونسوا دينهم من أجلها وخاضوا بحار الدم فى سبيلها ليذلوا المسلمين بها ويذلوا هم أنفسهم بها أيضاً ، وأمة الإسلام التى سعوا إلى دوسها بأقدامهم ظلت بعيدة عنهم وأصبحت فقيرة منهوبة ولكنها مؤمنة ، مظلومة ولكنها عزيزة ، مجردة من حقها ولكنها كريمة رافعة الرأس بإيمانها وعلمائها وقرآنها وحديثها .

فلننظر الآن فى أمر البيت الثانى من بيوت قريش الذى اجتمعت على حبه أمة الإسلام حباً فى رسولها ﷺ : البيت الهاشمى العلوى الذى حكم عليه بيت عبد شمس بالموت ، وفشل الجلاد الأموى فى تنفيذ العقوبة ، فأراد الحظ أن تتكرر المحاولة الشريرة الغبية على يد الهاشميين العباسيين .

وثب العباسيون على الخلافة ونالوها بالدهاء والسيف ، وقد أسرفوا فى العنف والقتل والعدوان على الدماء والأموال حتى أخرجوا أنفسهم فى أحيان كثيرة عن الإسلام بواقع تصرفهم ، وإن ظلوا يحكمون معظم أمصاره بقوة السلاح والذكاء والجهد المبالغ فلم تجهد أسرة من أسر الخلافة فى المحافظة على ما صار إليها من دار الإسلام قدر ما جهد العباسيون ، وخاصة خلال العصر العباسى الأول ، حقاً إن الخلافة كانت دائماً شقاء لمن طلبها بعد أبى بكر وعمر ، ولكن الأمويين فى المشرق كانوا يعرفون أنهم خلفاء بالقوة لا بالحق ، وعمادهم الحقيقى كان على القادة العسكريين ورجال السياسة الذين أيَّدوا دولتهم ، وكانوا واقعيين ، لهم فى المكان

---

(١) انظر ابن الأثير ، الكامل : ٧/ ٦٧ - ٦٨ .

الأول الثمرات الملموسة للخلافة من السيادة على الناس والتمتُّع بالأموال والخيرات ، ولا يعنيهم فى كثير رضى الناس أو عواطفهم ، بل لم تكن تعنيهم ناحية الشرعية .

وقد وصل إلى هذه الشرعية - أى تسليم الناس بأنهم خلفاء مرضيون - ثلاثة منهم : عبد الملك بن مروان ، وابنه الوليد ، ثم عمر بن عبد العزيز ، فأما الأولان فقد استحقا الشرعية وتأييد المسلمين ورضاهم بالفتوح وصرف الهمة فى الجهاد وتوسيع نطاق الإسلام وتعريب الدولة ، وأما الثالث فقد استحق الشرعية بالسلوك الإسلامى الخالص ، وهو عمر بن عبد العزيز الذى أثبت للناس أن أمة الإسلام أمة مؤمنة حكيمة وأنها مستعدة لإعطاء رضاها كله لمن يلتزم حدود الإسلام ويقوم بحقه ، وهذا المثل الذى ضربه عمر بن عبد العزيز فى خلافته القصيرة زاد فى زعزعة قواعد الملك الأموى لأنه كشف للناس أخطاء غيره من خلفاء بنى أمية كشفاً جلياً ، ولهذا فإن الناس استقبلوا خلفه وهو يزيد بن عبد الملك بن مروان بن الحكم استقبالاً سيئاً جداً ، وأيَّد هو سوء ظنهم بمسلكه الأموى البعيد عن خلق الإسلام ، وتدهور بعد ذلك الملك الأموى تدهوراً سريعاً انتهى بزواله . واستراحت أمة الإسلام كلها بسقوط هذا البيت العبشمى القرشى ، ورأوا فى ذلك عدلاً من الله سبحانه ورحمة بأمة الإسلام .

وفيما يتعلق بمصائر قريش رأينا أن الأمويين لم يُظْهِروا أى حرص للمحافظة على مكانة قريش ، فقد رأينا كيف أنهم لم يكونوا يهتمون إلا ببيتهم الأموى . وفى سبيل بيتهم سلطوا رجال أعاريب مضر على المدينة ومكة ومن فيها من القرشيين بل أُهين الخليفة عثمان بن عفان وهو شهيد بنى أمية على يد مسلم بن عقبة المرى ولم يعترض الخليفة يزيد على ذلك بكلمة . أما المروانيون فهم الذين استعانوا من أول الأمر فى حربهم مع عبد الله بن الزبير بالكلبيين القضاعيين المنتسبين فى اليمن بتوجيه من الخليفة معاوية بن أبى سفيان وهزيمة القيسية فى مرج راهط كانت فى الحقيقة ذات أثر بعيد فى توهين أمر قريش لأن القيسية كانت مضرية على أى حال وبعد انتصار مرج راهط وانتهاك حرمة المدينة ومكة أصبحت صلة البيت المروانى بالقيسية عامة واهية ، وفى أيام سليمان بن عبد الملك بدأ الانحراف عن اليمنية وموالاة القيسية .

ولم تطرب أمة الإسلام لقدوم بيت بنى العباس ، وهم بيت قرشى ثان دخل الميدان يعلن بصوت جهير وقلب جرىء أنه وحده صاحب الحق فى الولاية والوصاية على هذه الأمة ، فهم الورثة الشرعيون لملك رقبة أهل القبلة جميعاً . قال داوود بن على فى خطبة افتتاح ملك ابن أخيه أبى العباس السفاح من منبر الكوفة : « فاعلموا أن هذا الأمر فينا ليس بخارج منا حتى نسلمه إلى عيسى بن مريم صلى الله عليه وسلم...» وهى مقالة لم يرض عنها مسلم ، لأنه إذا كان ولابد أن يرد الأمر إلى بيت النبوة وآل محمد ﷺ فأين منها - والله - أولاد العباس ؟

أما آل على فقد كان قيام دولة بنى العباس إيذاناً بعذاب لهم شديد ، وإنه لمن غرائب ما يُذكر أن أحسن تاريخ لآل على بن أبى طالب وما جرى عليهم بسبب قرابتهم منه ، كتاب محزن يسمى « مقاتل الطالبيين » كتبه أبو الفرج الأصفهانى ، وهو تاريخ جنائزى يقص علينا كيف انكسر فى معارك ، هى فى الحقيقة مذابح ظَهْر البيت القرشي الأكبر الذى كان يحق له أن يحوز الخلافة إذا كان ولابد أن يحوز هذه الأمانة الكبرى بيتٌ واحد من بيوت المسلمين .

والحقيقة أن البيت العلوى كُتِب عليه منذ بيعة السقيفة أن يجاهد ليحتفظ برأسه فوق الماء وأيدى الظالمين تدفعه فيه ، وإذا كان بيت بنى أمية قد عرف كيف يفقد الناسَ الثقة فى بيتهم القرشى الكبير ، فإن بنى العباس أثبتوا لأمة الإسلام أن الهاشمية ليست فى ذاتها دليلَ تُقى وإيمان ، لأن المؤامرة التى دبرها محمد بن على بن عبد الله بن عباس ثم ابنه إبراهيم الإمام على أبناء على ليسرقوا الخلافة سرقة من يد أبى هاشم بن محمد بن الحنفية بن على بن أبى طالب ، مؤامرة ظاهرة الوضاعة تدل على تهالك مُخْزٍ على الدنيا . ورغم المقاتل والمذابح انجلى الأمر عن أن البيت الوحيد الذى بقى فى الميدان هو بيت على بن أبى طالب المنحدر من عترة رسول الله ﷺ .

وبعد خيبة الأمل المضاعفة فى القرشيين اتجه المسلمون بآمالهم إلى البيت العلوى ، وقد أصبحت الآن تجمعهم إلى بقية المسلمين أكثر من واشجة ، فهم مظلومون كبقية أمة الإسلام ، وهم مستضعفون مهضوم حقهم كبقية المسلمين ، وهم غير آمنين لا على النفس ولا على المال ، كبقية المسلمين وفيهم التقى والورع والخوف على مصير

الإسلام ، وهم آخر الأمر - أو أوله بتعبير أصح - بيت النبى وعترته ، وهو صلوات الله عليه عزاء كل مسلم عن متاعب هذه الدنيا .

العَلَويّون آل البَيْت :

وأول ما يستوقف النظر فى أمر العلويين هو أنهم تمسكوا بصورة أساسية بمبدأ الوراثة فى الخلافة ، فهم أصحابها فى اعتقادهم وهى تنتقل من الأب إلى الابن ، ولا ندرى إن كان على بن أبى طالب نفسه قد فكر فى أنه ستكون للمسلمين رياسة فردية بعد وفاة الرسول ، فيبدو أن هذه الفكرة نشأت عند أبى بكر وعمر وإن كانت القرائن تدل على أنهما كانا يريان أن القيادة لابد أن تكون جماعية شورية مع وجود الخليفة ، أما ما يقال من أن الأنصار اجتمعوا فى السقيفة لمبايعة سعد بن عبادة بن دليم الساعدى الخزرجى فأمر مشكوك فيه ، والواضح أمامنا أن الخزرج اجتمعوا للنظر فى أمر أنفسهم بعد وفاة الرسول . والرجل نفسه لم يقل إنه يرشح نفسه لخلافة رسول الله ﷺ فى قيادة أمة الإسلام ، وعندما سأله أبو بكر لأول دخوله السقيفة قال : « إنما أنا رجل من المسلمين » .

والأغلب أن عامة كبار المسلمين كان تفكيرهم أن تستمر قيادة الجماعة فى صورة جماعية ، وقد استمر ذلك بعد وفاته ، فكانت الأمور تُدرس بين شيوخ الجماعة ؛ والخليفة ينفذ ما تستقر عليه الأمور ، وتشاور المسلمين مع خليفتهم فى عظائم الأمور أيام أبى بكر وعمر معروف ، وكان من الممكن أن تستمر هذه السياسة ، ومن أسف أن المسلمين لم يناقشوا هذه المسائل الأساسية أيام الشيخين . وقد سبقت المسلمين فى ذلك أمم ، فإن اليونان والرومان سبقوا إلى هذه النظم والعصر الجمهورى فى تاريخ الرومان يبلغ فوق القرون الخمسة ، وهى فترة طويلة جداً بميقات العصور الماضية ، وهى تدل على صلاحية القيادة الجماعية .

وإذا نحن ذكرنا أن نظام الخلافة الشورية لم يستمر فى تجربتنا السياسية إلا نحو ثلاثين سنة بعد وفاة الرسول ﷺ ، تبينا أنه ربما كان الأوفق أن يُؤخذ برأى الحباب بن المنذر بن الجموح الذى قال : منا أمير ومنكم أمير ، مع بقاء وحدة الأمة ، لأن الأميرين هنا يمثلان البرايتورين Praetorii اللذين سُمِّيا فيما بعد بالقنصلين Consuli

عند الرومان وكانا يُنتخبان للحكم لمدة عام ، أما قاعدة الحكم الأساسية فهى الهيئة المئوية عند الرومان Comitia centuriata ثم الهيئة التنفيذيةComitia Curiata ولكنهما هيئة منتخبة أو هيئة تمثل البيوت الكبرى فى المجتمع الرومانى ، ثم أضيف إلى كل قنصل من القنصلين مساعد كبير لشئون المال يسمى الكويستور Quaestor ، ثم زِيدَ فى كبار الموظفين المنتخبين آخرون مع الزمن ، وكلهم يعملون لمدة عام أو عامين ، وقادة الحكم هما الهيئتان الرئيسيتان المئوية والتنفيذية .

وهذا الذى أقوله هنا مجرد تذكير بتجارب أخرى سابقة كان من الممكن أن يصنع المسلمون مثلها ، والقرآن الكريم يدعو إلى ذلك ولا يدعو أبداً إلى أن يرأس الأمة رئيس واحد منفرد بالأمر . فالأمة فى القرآن هى القاعدة وحاملة لواء الدين ، وآيات الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر تشير إلى ضرورة وجود هيئة ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ﴿١٠٤﴾ ﴾ [آل عمران] أما القائم بالتنفيذ فقد تركه القرآن للمسلمين يرون رأيهم فيه ، وإذا قرأنا رسائل الرسول إلى رؤساء العرب الذين أتوا يدخلون الإسلام على يديه ، وجدنا أنه لا يمانع فى أن يستمر أصحاب الأمر فى كل قبيلة أو ناحية رؤساؤها الذين ترضى عنهم جماعاتهم ، ولا وجود لفكرة السلطة المركزية فى كتب الرسول ﷺ ، لأن أهم شىء عنده كانت وحدة الأمة والتفافها حول راية الإسلام واستمرارها فى إقامة شريعته مع الجهاد فى سبيل الله .

ولو أن المسلمين اتجهوا بفكرهم إلى القيادة الجماعية ، لكان هذا أسلم لأن هذه القيادة توزع السلطات بين عدد كبير من رؤساء المسلمين وترضى طموحات الكثيرين إلى السلطان ، وتؤجل إلى تاريخ متأخر صراع المطامح الفردية أى الانفراد بالحكم ، وما ضَرَّ أمة الإسلام شىءٌ مثل الاتجاه السريع إلى الحكم الفردى بعد سقيفة بنى ساعدة ، وأمة الإسلام كانت أيام الرسول ﷺ أمة صاحبة سلطان وسيادة ورسالة ، وكان لابد أن تستمر الأمة محتفظة بسلطانها وكل أفرادها كان ينبغى أن يظلوا سادة . هنا كان كل أصحاب القدرات والكفايات والطموحات يجدون مكاناً وفرصة للعمل وخدمة النفس والجماعة ، وقد كانوا هكذا أيام الرسول ﷺ : كانوا

جميعاً يعملون متكاتفين متآخين والأمة تفيد منهم جميعاً ، وكان الرسول يُسيِّر أمورهم بالهيبة والإخلاص والعدل والصدق فى تنفيذ أحكام الإسلام عبادة وشريعة والمحافظة على مكارم الأخلاق ، وهى كانت أساس العلاقات جميعاً فى أمة الإسلام ، سياسية واجتماعية واقتصادية .

ولكن اجتماع السقيفة انتهى بأن تكون قيادة الأمة لأبى بكر على أن يكون الأمر شورى بين المهاجرين والأنصار كشقِّ الأُبْلُمة ، ولكن الذى حدث ، هو أن الأنصار استُبعدوا فى واقع الأمر من القيادة وترك السلطان فى يد أبى بكر ، ولا معنى لامتداح هذا الواقع فى ذاته على أساس أن الذى وقع عليه الاختيار كان أبا بكر ومن بعده عمر ، وخلافتهما معاً لا تزيد مدتها على اثنتى عشرة سنة هجرية ، والحكم على أى نظام للحكم فى أى دولة من الدول لا يكون صواباً على أساس أنه سار سيراً طبيعياً لهذه الفترة القصيرة ، فإذا اضطرب أمره وساء أثره وتدهورت شئون الجماعة بعد ذلك بشكل خطير ، فهذا يدل على أن النظام فى ذاته لم يكن صالحاً ، وقد تولى عثمان الخلافة على نفس الأساس بناء على اختيار الستة ، والتزم هو بالسير على سياسة أبى بكر وعمر ، ورغم تُقاه فإنه انحرف أو بدَّل كما تقول المراجع .

فقد كانت هناك قاعدة أساسية فى هذا النظام تقول إن الخليفة المختار إذا انحرف ، كان للأمة أن تُقوِّمه ، ولكن معنى ذلك التقويم وطريقته وحدوده تُركت فى القضاء بلا تحديد ، والثائرون على عثمان لم يعرفوا كيف يُقَوِّمونه ، هو نفسه لم يُسلِّم قط بأنه « بدّل » أو انحرف وتشبث بالمنصب ، ثم إن أحداً لم يقدر مدة لهذه الولاية ، وعثمان عندما رأت الأمة أنه انحرف رفض أن ينصاع لما طلبت إليه الأمة على لسان الثائرين عليه وكبار الصحابة لأنه أخذ الولاية على أنها لمدى الحياة ورفض ولاية الأمة وأنكر حقها فى محاسبته ، وعندما أتت الأمة تطلب إليه أن يعتزل قال : « لا أخلع سربالاً سربلنيه الله » « ولا أنزع قميصاً قَمَّصنيه الله » ، ومعنى ذلك أنه بعد أن تولى بإرادة أهل الشورى المفوضين من الأمة ، أصبح يرى أنه مختار من الله ، وأن ثوب الخلافة أتاه من الله ، فهو إذن يحكم بحقٍّ إلهى .

وهذا يبدو أنه خطأ من عثمان ولكنه خطأ من النظام نفسه ، إذ أنه كان خالياً من

الضوابط والتحديدات ، وآل عثمان عندما تعصبوا له افترضوا أن عثمان والخلافة معه حق له ولآل بيته لأنهم كانوا قد تحولوا إلى أسرة حاكمة ، وقالوا إنهم ليسوا أولياء دم عثمان الرجل فحسب ، بل عثمان الخليفة أيضاً ، ولهذا رفضوا الطاعة للخليفة الجديد ومضوا يتهمون الخليفة المنتخب الجديد بأنه مشترك فى قتل قريبهم وهم يحاربونه على هذا الأساس فى الظاهر ، أما الباطن فهو أنهم رأوا أن الخلافة إذا كانت قد صارت إلى واحد منهم فقد أصبحت حقاً بينهم ، ومنطقهم هذا هو الذى انتصر فى النهاية ، وساعدهم على ذلك خذلان نفر من الصحابة لعلى بن أبى طالب ونزعهم بيعته وزعمهم أنهم بايعوا بالقوة وأحلوا لأنفسهم خلعه ، والنظام فى آخر الأمر أصبح مَلَكية وراثية فى بيت واحد .

وما دام الأمر قد أصبح مُلْكاً فى بيت واحد ، فقد تغير معنى الخلافة ورياسة الأمة تغيرات جوهرية أخرجته عن شورية الإسلام ، وما دام قد خرج عن شورية الإسلام فقد أصبح السؤال : أى بيت من بيوت المسلمين أحق بهذا الملك ؟

وكان من الطبيعى أن تجيب الأمة على هذا السؤال بانتخاب على بن أبى طالب ومبايعته ، فنهض بنو أمية ينازعونه هذا الحق ، وقالوا بالخلافة الوراثية فى بيتهم ، وكان من الطبيعى أن يرد آل على : نحن الأحق ، فنحن بيت الرسول ﷺ ورأسنا على ابن أبى طالب أقدم الصحابة صحبة ، وأكثرهم بذلاً فى سبيل الإسلام وأوسعهم به علماً ، وعلىّ كان أقضى الصحابة والقضاء أعلى الولايات . هذا هو الذى قالوه وتمسكوا به وطالبوا به ، وأصبحت المسألة فى الواقع نزاعاً بين آل على وآل أمية ، وما دام بيت أمية هو الذى انتصر فى الصراع السياسى والعسكرى واستبد بالخلافة والملك وحاز السلطان وحصل على البيعة بالصورة التى ارتآها وقدر عليها ، فقد أصبح كل طالب للخلافة من دونه خارجاً على النظام ، وأصبح من واجب أصحابه فى رأيهم ، محاربة المنافس والطامع والقضاء عليه .

وعندما انتقلت الخلافة بنفس طريقة الغصب والخداع إلى بيت بنى العباس ، وحازوا القوة وانتزعوا بها البيعة فقد أصبح العلويون المطالبون بالخلافة خارجين على القانون ، وأصبح من حق صاحب السلطة – فى رأيه – أن يقضى عليهم محافظة على

النظام الشرعى القائم من عدوان مدَّعين أنهم يهددون أمن البيت المالك ونظامه .

وهذا بوضوح ومنطقية تاريخية واقعية هو وضع البيت القرشى العلوى من ذلك الحين ، وأصبح نتيجة المطالبة بالخلافة بيتاً خارجاً على النظام وخارجاً على القانون ومحاربته حلال والقضاء عليه واجب لصالح الجماعة فى رأى أصحاب السلطان .

ولكن العلويين تمسكوا دائماً بأن الخلافة من حقهم وأن وثوب غيرهم عليهم عدوان ، ولما كان هذا هو رأى جانب كبير جداً من المسلمين ، وهم على حق فى ذلك ، لأنه ما دامت رياسة الجماعة تُوَلَّى إلى رجل وآل بيته فإن علياً وآل بيته أَوْلَى .

هنا تكمن مأساة ذلك البيت القرشى الجليل ، وهى مأساة فُرِضت عليه فرضاً بمنطق الاختيار فى السقيفة ، فقد تقرر مبدأ الخلافة فى شخص واحد ، ثم أصبح فى شخص وآل بيته ، ومن هنا نفهم كيف أن مذاهب الخوارج التى لم تعترف بمبدأ الوراثة فى بيت واحد ، نصت على ألا يكون الإمام المختار من قبيلة ذات عصبية كبيرة حتى يسهل عزله إذا انحرف ، ورفضوا مبدأ الوراثة فى الخلافة لئلا تتحول الولاية إلى مُلْك وراثى.

وبعد ما عانته الأمة من بنى أمية وبنى العباس أصبحت غالبية المسلمين تؤيد حق البيت العلوى ، وأصبح هناك فى اعتبار تلك الغالبية خليفتان ، خليفة ذو حق مشروع وهو الرضى من آل على ، وخليفة رسمى مفروض على الناس بالقوة وهو البيت القائم أُموياً أو عباسياً ، وتلك هى الأرضية التى وقف عليها بنو العباس عندما مكروا مكرهم وحازوا الخلافة على أن مرشحهم هو الرضى من أهل البيت . وإذا سرنا خطوة أخرى مع منطق السياسة الواقعية أو سياسة الأمر الواقع أو الريال بوليتيك Real politik قلنا : إن الذى وقع هو الأمر المحتوم أو imperative لأن الأمر ما دام قد أصبح سياسة ، فإن منطق السياسة هو الذى يسود ، ومنطق السياسة يقول إن الذى يحوز القوة - والحكم - هو الأقوى أو الأذكى أو الأوسع حيلة . والسياسة فى تلك العصور لا تعرف الحق ولا تعرف الأخلاق فى معظم الأحيان .

وإذن فمنذ قيام الحكم الأموى أصبح البيت العلوى خارجاً على القانون ، وحتى

لو أعلن ممثله أنه لا يريد الحكم ولا يشتغل بالسياسة كما كان الحال مع جعفر الصادق ابن محمد الباقر ، فقد كان طول حياته موضع شبهة وخوف من جانب العباسيين ، ويكفى أنه كان يُلقَّب علناً بالإمام أى رأس أمة الإسلام ، وهو فى هذه الحالة إمام محروم أو إمام محكوم عليه بالموت مع وقف التنفيذ ، وإذا كان قد مات فى فراشه فى المدينة سنة ١٤٨هـ/ ٧٥٦م ، فقد كان ذلك مصادفة .

ولكن بقية أئمة بيت على الذين كان من الممكن أن يطلبوا الخلافة قُتِلوا بالسيف أو السم .

وبعد مقتل محمد النفس الزكية بن عبد الله المحض بن الحسن بن الحسن بن على ابن أبى طالب فى السنة التى ذكرناها ثم مصرع أخيه إبراهيم فى باخمرا فى نفس السنة تفرق إخوتهما من أبناء عبد الله بن الحسن وأبعدوا فى الرحلة ليكونوا بمنأى من أيدى العباسيين ، فذهب يحيى إلى طبرستان حيث أنشأ دولة ، وذهب أخوه إدريس إلى المغرب الأقصى حيث أقام الدولة الإدريسية ، ولحق به أخوه سليمان بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن على بن أبى طالب إلى غرب المغرب الأوسط ، حيث أنشأ هو وأولاده دويلات صغيرة .

ولا أظن أن فى بيوت قريش بيتاً هو أكثر نسلاً من بيت على بن أبى طالب ، فأولاده كثيرون ، ومعظم أولاده ، صبيان وبنات ، ومن هؤلاء تفرع مئات انتشروا فى عالم الإسلام كله ، والقليلون منهم لم يعقبوا ، وأقل من هؤلاء هم العلويون الذين لم يطلبوا الخلافة ، وقد قُتِل منهم الكثيرون جداً فى هذا المطلب ، ونجح الكثيرون أيضاً فى إنشاء بيوت إمارة فى نواحى عالم الإسلام حتى تعد بيوتهم بالعشرات معظمها فى اليمن وعسير وبلاد الديلم وهى طبرستان والمغرب ، هذا إلى الفاطميين فى المغرب ومصر ، وسنتحدث عنهم .

وأهم ما نشير إليه هنا أن هذا البيت بشتى فروعه ظل مرشحاً من أمم الإسلام جميعاً للرياسة والإمارة أو الخلافة ، ومنهم من نشأت منه بيوت شرف وسرو مثل بنى طباطبا وهم من أبناء إبراهيم بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن على بن أبى طالب .

ومعظم أفراد هذا البيت كانوا من أفاضل الناس ، ولكن كان منهم أيضاً الكثيرون ممن لم تُحمد سيرتهم . وباستثناء هؤلاء القليلين كان العلويون فى شتى بلاد الإسلام موضعَ تكريم الناس ومحبتهم ، ومن هؤلاء الهواشم العلويين كانت الدول الكثيرة التى ظلت تحمل اسم قريش على رؤوس الناس عبر القرون .

وإذا كانت محاولات قريش إنشاء دول كبرى تمثلت فى بنى أمية وبنى العباس والفاطميين ، لم تحقق رجاء الناس فى العدالة والحكم الإسلامى الصالح ، إلا أن العباسيين منهم حملوا اسم قريش على رؤوس الناس فى مشرق الدولة الإسلامية حتى منتصف القرن السادس الهجرى / الثالث عشر الميلادى ، وإن لم تُحمد سيرة أكثرهم وخاصة بعد خلافة المتوكل على الله .

ولكن بيوتاً قرشية هاشمية علوية أخرى ، أنشأت دولاً عرفت كيف ترفع اسم قريش فى نواحى عالم الإسلام إلى يومنا هذا .

أما بنو عبد شمس من قريش ، فقد كانت لهم بعد زوال دولة بنى أمية فى المشرق ، دولة كبرى فى الأندلس ودويلات أخرى أو إمارات صغيرة قام معظمها فى أفريقية .

* * *